مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (2)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (2) 2016

الاستشراق في فكر ماركس وأنغلز

الدكتور جلال بدلة*
محسن المحمد**

(تاريخ الإيداع 9 / 12 / 2015. قبل للنشر في 20 / 4 / 2016)

□ ملخّص □

يعنى هذا البحث بالتنقيب عن مقولات الفكر الاستشراقي في نصوص مؤسسي الماركسية، ومحاولة اثبات أن فكر ماركس وأنغلز لا يندرج داخل النسق الثقافي الغربي للاستشراق، وإنما هناك نزعات استشراقية تسللت إلى فكرهما لم تصل إلى درجة الموقف الاستشراقي الثابت غير المتردد.

وبالإضافة الى ذلك حاولنا انجاز قراءة ابستمولوجية تسير على خطى الفيلسوف الفرنسي ألتوسير حيث تم إعلان موت النصوص التي تتغلغل فيها أيديولوجيا الاستشراق لأنها تتعارض مع الفهم المادي للتاريخ، أي إقرار القطيعة بين النصوص المتعلقة بالشرق والتي ظهرت فيها مفاهيم الاستشراق (الطبائع الثابتة– المركزية الاوروبية) والنصوص التي غابت عنها أيديولوجيا الاستشراق.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الفهم المادي للتاريخ، الأيديولوجيا، المركزية الأوروبية، الطبائع الثابتة.

* مدرّس – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الانسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** طالب دراسات عليا (ماجستير) – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (2)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (2) 2016

The orientalism in the thinking of Marx and Engles

Dr. galal Badleh*
Mohsen almohammad**

(Received 9 / 12 / 2015. Accepted 20 / 4 / 2016)

□ ABSTRACT □

This paper is interested in the quest for the arguments of orientalist thinking in the texts of the Marxism founders. It's trying to provide an answer to a three dimensional question that can be resumed as follows: Could the thinking of Marx and Engels be inscribed within the orientalist occidental cultural system or should it be placed out of it? Or maybe it's neither out of this orientalist system nor inside it, but rather are there some orientalist tendencies that didn't get to be a constant unhesitating orientalist position.

Moreover, we will try to perform an epistemological reading following the steps of the French philosopher Althusser when we announce the death of the texts in which penetrates the ideology of orientalism because they contradict with the materialist conception of history, that is to say, we admit the rupture between the texts that treated the Orient and in which appeared the orientalist conceptions (fixed characters,Eurocentrism) and the other texts from which this orientalist ideology was absent.

Key words: Orientalism, Materialist conception of history, Ideology, Eurocentrism, Fixed characters.

*Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
**Postgraduate Student, Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

بقي فكر ماركس وأنغلز خارج الاتهام بالاستشراق أو بالتأثر والخضوع للمكتوب الاستشراقي حتى ظهور كتاب ("الاستشراق" المعرفة – السلطة – الإنشاء) للمفكر إدوارد سعيد الذي يحلل فيه تحليلاً دقيقاً القوالب الغربية عن الشرق، ويعتبر أن الاستشراق يمثل الفضاء الثقافي العام الذي لا يمكن لأي مفكر في الغرب الخروج عنه بما في ذلك ماركس الفيلسوف والمنظر لأممية خالية من الطبقية والعنصرية والعرقية.

فقد فجر هذا الكتاب نقاشات فكرية داخل وخارج الفكر الماركسي، حيث انقسم المفكرون بهذا الخصوص إلى قسمين: ظل الأول يعتبر كلاً من ماركس وأنغلز فيلسوفين خارجيين بالكامل (أي خارج النسق الفكري الغربي الاستشراقي)، واعتبر الثاني أن فكرهما يندرج ضمن الرؤية الاستشراقية وفي حالة اتفاق كامل مع تحليل إدوارد سعيد لهذه الرؤية.

هذه هي حالة المفكر العربي هادي العلوي على سبيل المثال الذي اعتبر فكر ماركس وأنغلز خارج نطاق الفكر الاستشراقي، فيكتب بهذا الخصوص: «ماركس وأنغلز وهما فيلسوفان خارجيان بالتمام، أعني أنهما ليسا غربيين. وبحدود ما تناولته أعمالهما الشديدة التفرع من قضايا في التاريخ وحدود معلوماتهما الشحيحة عن الشرق، مثَّلا الغرار الذي يمكن لمؤرخ أممي أن يتناول به تاريخ الحضارات والشعوب بمنهج علمي نزيه[1]».

أما الباحث فؤاد خليل فهو يرى أن فكر ماركس يعبّر عن رؤية مركزية أوروبية غربية ترى في الآخر (الشرقي على سبيل المثال لا الحصر) على أنه متخلف ومستبد، وبناءً على ذلك يجب على الغرب الأخذ بيده إلى دائرة الحداثة، ويكتب في هذا الخصوص:«وهو في مخطط المراحل الزمنية [ويقصد تعاقب أساليب الإنتاج عند ماركس] يعكس انزلاق ماركس إلى أدلجة تبريرية يقع جذرها في الأنويّة الغربية. لذلك كان النمط الآسيوي للإنتاج يحتاج إلى قوة خارجية رأسمالية تدمره، لتلحقه بخط التطور، ومن ثم تدمجه في مسار التاريخ الأوروبي[2]».

ومن هنا نجد أن معظم النقاشات جرت بناء على إجابة عن سؤال صيغ صياغةً منطقية صورية وفق قانون الثالث المرفوع "إما...أو"، ويمكن إيجاز هذا السؤال كالتالي: هل فكر ماركس وأنغلز يندرج داخل النسق الفكري الغربي الاستشراقي، أم أنه يمثل خروجاً عنه؟. المشكلة في مثل هذه الطريقة في طرح الأسئلة أنها تُهمل بل تُقصي الإمكانات الأخرى. ونحن هنا نريد أن نفكر بإمكان ثالث، وهو أن لا يكون فكرهما لا داخل النسق ولا خارجه، وإنما يكون هناك نزعات استشراقية ظهرت أو تسللت إلى نصوص مؤسسي الماركسية. ويمكن، بعد إنجاز قراءة ابستمولوجية تسير على خطى الفيلسوف الفرنسي آلتوسير، أن يصبح النص الماركسي خارج حدود النسق الاستشراقي. بعبارة أخرى، يمكننا أن نقسم النصوص بشكل عام ومن وجه نظر الرؤية الاستشراقية إلى صنفين: النصوص التي أسست النزعة الاستشراقية وكرّستها، والصنف الثاني هو النصوص التي لم تساهم أساساً في تأسيس هذه النزعة لكنها لم تجهد أيضاً للابتعاد عنها أو محاربتها. أمّا نصوص ماركس وأنغلز فتنتمي إلى الصنف الثاني.

لا بد هنا من تكرار أهمية هذا النقاش والتركيز عليه. إن هذا النقد الموجّه للماركسية واتهامها بالمركزية الأوروبية قد يزعزع الأساس العلمي للمادية التاريخية ككل. وينبغي على كل ماركسي، قبل الشروع في تطبيق المقولات الماركسية على أي واقع اجتماعي تاريخي أن يواجه هذه العقبة ويبرهن على علمية المنهج المادي التاريخي في هذه

---

[1] العلوي، هادي . الفكر العربي الإسلامي وضرورة التجديد المنهجي، دار البدايات، جبلة، سورية، 2008، ص 15.

[2] خليل، فؤاد .هيغل – وماركس "مطلق في الأزل، حتمية في الأبد"، ضمن مجلة الطريق، العدد الخامس، السنة 56، أيلول– تشرين الأول/سبتمبر – أكتوبر 1997، ص 117.

النقطة بالذات، أي: الاستشراق. فأن تكون المادية التاريخية "استشراقية"، فهذا يعني أولاً أنها أيديولوجيا ، أي، وكما يقول ماركس عن الأيديولوجيا، أنها إما تعليقاً كلياً للتاريخ أو فهماً خاطئاً له. ثانياً، يعني الاستشراق أنها لا تتسم بالعالمية التي ادعتها، أي أن للنظرية حدود جغرافية وتاريخية ولا يمكن بالتالي تطبيقها على المجتمعات كافة. وثالثاً وهو الأهم، هذا يعني أن الماركسية بشكل عام تنتمي إلى نظرية إمبريالية تكون هي أعم منها، إضافة إلى أنها قد تشكل طرفاً في رؤية كولونيالية أعم. هذه هي باختصار رهانات نقاشنا وأهمية ما سنحاول دحضه من خلال إخراج النصوص الماركسية من هذه الثنائية. ولذلك كان السعي في بحثنا هذا إلى التنقيب والبحث في نصوص ماركسوأنغلز عن المقولات والأفكار الاستشراقية متجنبين الوقوع في أسر الثنائية المعلن عنها وفق الصورة المنطقية للثالث المرفوع.

أهمية البحث وأهدافه:

تعود أهمية البحث الى أنه يستقصي مدلولات الاستشراق ومقولاته في فكر ماركس وأنغلز اللذين يعتبران خارج إطار المستشرقين كمتخصصين في تاريخ الشرق، فالاستشراق باعتباره أيديولوجيا لا يتحدد بالمستشرقين وأعمالهم ومؤسساتهم بل هو يمتد ليشمل كثيراً من الميادين الفكرية والفلسفية والتاريخية.

ويهدف هذا البحث الى اثبات أن كل فكر ملوث بالأيديولوجيا مهما حاول التخلص من ذلك والاقتراب من الموضوعية. بعبارة أخرى، نحاول من خلال بحثنا أن نضع مسألة الاستشراق في سياقها الصحيح عبر طرح الأسئلة التالية: ماذا يعني أن يكون الفكر الماركسي استشراقيًا؟ ماذا يعني ذلك بالنسبة إلى علمية المادية التاريخية؟ هل يحدّ ذلك من علميتها؟ هل يحولها إلى أيديولوجيا غربية و"قرينة" على أن الفلسفة الماركسية، مثلها مثل بقية الفلسفات والمذاهب الفكرية الأخرى، هي فلسفة تعتريها آثار المرحلة الإمبريالية والاستعمارية؟ بسؤال بسيط، ماذا يتبقى من الماركسية بعد نزعاتها الاستشراقية؟

منهجية البحث:

الهدف الذي تحدثنا عنه يتطلب تتبعاً تحليلياً لنصوص ماركس وأنغلز وبشكل خاص النصوص التي تتناول الشرق كمادة للتفكير، وهي: المقالات المتعلقة بالاستعمار ورسائل ماركس وأنغلز والبحوث غير المكتملة عن أسلوب الإنتاج الآسيوي والمجتمعات ما قبل الرأسمالية.

كما سنستعين بالمنهج المقارن حيث سنقارن بين بعض نصوص مؤسسي الماركسية بخصوص الشرق مع نصوص أشهر المستشرقين، والمقارنة هي بغرض إظهار التأثر بالمكتوب الاستشراقي أو الخضوع لأيديولوجيا الاستشراق.

النتائج والمناقشة:

أولا: مفهوم الاستشراق:

لابد قبل الخوض في غمار البحث عن المقولات والأفكار الاستشراقية عند ماركس وأنغلز أن نحدد مفهوم الاستشراق ومعناه. ماذا نعني بالاستشراق الذي ننقب عليه في فكرهما؟

الاستشراق كما يحدد إدوارد سعيد هو «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي <أنطولوجي> ومعرفي <أبستمولوجي> بين الشرق والغرب[3]». وبمعنى أخر الاستشراق هو تمييز على أساس تعميمات وتجريدات تقول بتفوق الغرب وانحطاط الشرق، وبعقلانية الأول وعاطفية الثاني، وبالانفتاح التطوري للأول والانغلاق والثبات للثاني.
فالاستشراق هو منظومة من الأفكار الثابتة والمعادية للتاريخ والتطور التي تقر بتفوق الغرب ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وبالمقابل تقر باستبداد وتخلف وانحطاط الشرق ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، أي أن هناك طبائع ثابتة لا تتغير، وبالتالي يحوّل الفكر الاستشراقي الغرب إلى كتلة واحدة لا تمييز فيها، وكذلك هو الأمر مع الشرق الذي يتحوّل هو الآخر إلى كتلة ثابتة لا اختلاف فيها، فمنطق الفكر الاستشراقي قائم على التماثل لا على التناقض.

إن الفكر الاستشراقي هو فكر أيديولوجي تنطبق عليه جميع صفات الأيديولوجيا كوعي زائف للتاريخ والواقع، فهو فكر «لا يرى في الفوارق المعروفة بين المجتمعات والثقافات الأوروبية الحديثة من جهة والمجتمعات والثقافات الآسيوية (أو الإسلامية) المعاصرة من ناحية ثانية، وقائع تاريخية متبدلة قامت نتيجة صيرورات معقدة مر بها التاريخ الطويل لتطور الإنسانية فحسب، بل يرى فيها قبل كل شيء آخر تجليات لكل من الطبيعتين الجوهريتين الشرقية والغربية بخصائصهما المتمايزة والمتفاوتة في تفوقها ورقيها[4]».

فكل مقولات الفكر الاستشراقي هي إما أنها تلغي التاريخ وصيرورته، أو تفهم الواقع والتاريخ بشكل زائف، فمن مقولة المركزية الأوروبية أو الأنوية الغربية التي تعني أن أوروبا هي الأنا في التاريخ وهي منطلق وغاية التاريخ وبالتالي لا دور حقيقي لأية حضارة في الشرق في حركة التاريخ، مروراً بمقولة الاستشراق الأساس وهي الطبائع الثابتة للشرق وللغرب التي تتلخص بالتفوق الدائم للغرب مقابل الدونية الدائمة للشرق والتي تقرر حالة ثبات بشكل يتناقض مع الواقع المتغير للشعوب والأمم عبر التاريخ، وصولاً إلى الكثير من الأفكار التي تتفرع عن المقولتين السابقتين وتتناقض مع الواقع التاريخي منها دور الغرب في الأخذ بيد الشرق إلى دائرة الحداثة ومنها الرؤية التي تحلل الشرق بسطحية بشكل يختلف عن التحليل الدقيق والعميق للمجتمع الغربي.

ولذلك نستطيع أن نقول في التحليل الأخير إن الاستشراق هو إيديولوجيا التي ترتد – كما يقول ماركس – «إما إلى تفسير خاطئ للتاريخ وإما تؤدي إلى تعليقه كلياً[5]».

ثانياً: الاستشراق في نصوص ماركس وأنغلز

إذا أخذنا التصنيف الشائع لنصوص ماركس وأنغلز القائم على تمييز بين مؤلفات الشباب ومؤلفات النضج، فإننا بالتأكيد سنجد صعوبة في إيجاد أيّة حالة استشراقية، والسبب في ذلك هو أن مؤلفات الشباب ترتكز على فهم فلسفي إنساني، وبالتالي يحضر فيها مفهوم الإنسان وتغيب بكل تأكيد النزعة العنصرية أو التمييزية بين إنسان وآخر أو بين شعب وآخر، وبالتالي بين شرق وغرب، وتعتبر مخطوطات 1844 **الاقتصاد السياسي والفلسفة** نموذجاً لذلك، ولتوضيح الأمر سنعرض بعض العبارات من تلك المخطوطات، يكتب ماركس قائلاً: «بالنسبة للإنسان الذي يتضور جوعاً، الشكل الإنساني للطعام ليس له وجود، بل فقط وجوده المجرد كطعام، سيان عنده أن يكون في شكله أكثر

---

[3]سعيد، إدوارد . الاستشراق "المعرفة – السلطة – الإنشاء"، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط 4، 1995، ص 38.

[4]العظم، صادق جلال . ذهنية التحريم، دار المدى، دمشق، ط 2، 2004، ص 38.

[5]ماركس، كارل؛ أنغلز، فريدريك . الإيديولوجية الألمانية، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، دمشق، د.ط، د.ت، ص 22.

فظاظة،[...] الإنسان الغارق في الهم والعوز ليس له حس إزاء أروع مشهد [6]». فماركس كما هو واضح يتحدث في هذا المقطع عن الإنسان بشكل عام من دون تمييز بين إنسان شرقي أو غربي.

وينطبق الأمر نفسه على مؤلفات النضج، وهي مؤلفات يطغى عليها الطابع العلمي والموضوعي، وبالتأكيد عندما يحضر العلم يغيب الاستشراق. يُعتبر كتاب **رأس المال** نموذجاً لذلك، فماركس في كتابه هذا وبأجزائه الثلاثة كان غرضه تحليل أسلوب الإنتاج الرأسمالي، فاختار إنكلترا كعينة لدراسته العلمية هذه، واختيار ماركس لإنكلترا لم يكن نتيجة نزعة مركزية أوروبية، بل لأن إنكلترا كانت في عصر ماركس البلد الرأسمالي الكلاسيكي الوحيد من حيث نموه وشدة هذا النمو. يكتب ماركس في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب **رأس المال**: «ولا تزال إنكلترا حتى الآن البلد الكلاسيكي لأسلوب الإنتاج هذا [يقصد ماركس أسلوب الإنتاج الرأسمالي] ذلك هو السبب في أنها [ويقصد إنكلترا] تشكل المصدر الرئيسي لشرح استنتاجاتي النظرية[7]».

رغم ذلك عملنا عمل الباحث على الآثار بالحفر والتنقيب داخل تلك النصوص بحثاً على أية حالة استشراقية. ولكن التركيز الأكبر كان على النصوص التي يحضر الشرق فيها كمادة للتفكير، وهذه النصوص ظهرت في المقالات المتعلقة بالاستعمار، وفي رسائل ماركس وأنغلز، وبحوث ماركس غير المكتملة حول أسلوب الإنتاج الآسيوي وفي المجتمعات قبل الرأسمالية.

ومن هنا ولسهولة التحليل اعتمدنا تصنيف المقولات والأفكار الاستشراقية التي تم الكشف عنها في نصوص ماركس وأنغلز وفقاً للأمم والدول الشرقية، باستثناء النصوص المتعلقة بالهند سيتم مناقشتها من خلال التناول النقدي لرؤية إدوارد سعيد في كتابه الأشهر **الاستشراق**، على الشكل التالي: ["مصر": المركزية الأوروبية – "إيران": تفوق الغرب ودونية الشرق – "الصين": دور الغرب في يقظة الشرق – " الجزائر": تسطح التاريخ – وأخيرا "الهند": ماركس واستشراق إدوارد سعيد]

أ– "مصر": المركزية الأوروبية

ففي رسالة أنغلز الى إدوارد برنشتاين في 9 آب 1882 يناقش أنغلزبرنشتاين بخصوص أحمد عرابي (زعيم انتفاضة الضباط عام 1881 لإقامة حكومة دستورية)، ويكتب :«يلوح لي أنك في القضية المصرية تبالغ في أهمية ما يسمى الحزب الوطني. إننا نعرف الشيء القليل عن عرابي، لكني مستعد الآن لأن أراهن بعشرة ضد واحد على أنه باشا عادي لا يريد أن يقبل بجمع الضرائب لحساب المتمولين، لأنه يفضل أن يضع الضرائب في كيس نقوده الخاص على الطريقة الشرقية القديمة[8]». يصف أنغلز عرابي (قائد الانتفاضة المصرية التقدمية) بأنه باشا عادي غايته مصلحة مادية لا غير، وحتى الآن ليس هناك أي قول يصنف في دائرة الرؤية الاستشراقية، لاسيما أن أنغلز يعترف بالمعلومات القليلة التي يملكها عن عرابي، ولكن عندما يتابع توصيفه يقول إن عرابي كغيره من الباشاوات الشرقيين يفضل جمع الأموال مباشرة واكتنازها، عندها يظهر تأثر أنغلز بالمكتوب الاستشراقي الذي ينظر إلى الشرقي على أنه محب للاكتناز وجمع الأموال وليس لديه هم آخر سواء على المستوى الأخلاقي أو الوطني. فالشرق الفاحش الثراء والإنسان الشرقي الفاتر الهمة الساعي الى الاكتناز؛ هذه الصور كانت راسخة في ذهن الأوروبيين في العصور

---

[6] ماركس، كارل . مخطوطات 1844 الاقتصاد السياسي والفلسفة، ترجمة الياس مرقص، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1970، ص 222.

[7] ماركس ، كارل . رأس المال – نقد الاقتصاد السياسي ، ج 1، ترجمة فهد كم نقش ، دار التقد موسكو ، د. ط ، 1985 ، ص 13 .

8 ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك . في الاستعمار، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، دمشق، د. ط، د. ت، ص 358.

الوسطى وبقيت كذلك حتى القرن التاسع عشر وساهم في ترسيخها السلطات البرجوازية الحاكمة لأنها تخدم غايات استعمارية.

يتابع أنغلز في رسالته نفسها:«لا يوجد الفلاح في البلد الفلاحي إلا كي يستثمر فقط. ولقد كانت الحال هكذا منذ أيام الدولة الآشورية والدولة الفارسية. إن الستراب أو الباشا هو الصورة الشرقية الرئيسية للمستثمر، تماما كما يمثل التاجر ورجل القضاء الصورة الغربية الحديثة. إن إنكاره ديون الخليفة أمر حسن بالتأكيد، لكن المسألة هي: ثم ماذا؟ ولا يجوز لنا نحن الأوروبيين الغربيين أن نقع في الشراك بمثل هذه السهولة كما هي حال الفلاحين المصريين[9]».

بعيداً عن ما اعتمده أنغلز من رؤية منطلقة من طبيعة ثابتة للفلاح الذي يوجد فقط لكي يستثمر منذ الأزل، فإن قوله "نحن الأوروبيين الغربيين" يحمل بقوة المخزون الاستشراقي الذي يقرر تفوق الغربي مقابل ضعف وجهل الشرقي، وفي هذا القول (وعلى النقيض من الرؤية الماركسية) يحضر الغرب ككل ويغيب الطابع الطبقي للغرب، فالقول "نحن الأوروبيين الغربيين" قول ملتبس يستحضر التماثل ويُغيّب التناقض، حيث يظهر الغرب كبنية واحدة لا تناقض فيها وكذلك الوعي الغربي هو وعي واحد فتبدو بنية الفكر الغربي بنية بسيطة لا اختلاف ولا تناقض فيها بين أشكال من الوعي المختلفة والمتصارعة (وعي بروليتاري، وعي برجوازي...)، في حين نجد أن الفهم المادي للتاريخ يقر بأن بنية الفكر في أي مجتمع هي بنية معقدة تعكس حركة الصراعات الطبقية الاجتماعية.

كما أننا نجد تطابقاً غير معلن من حيث النتيجة بين أنغلز المنظّر للثورة الاشتراكية وبين قادة الاستعمار الإنكليزي، بلفور و كرومر، في الوقوف في وجه حركة أحمد العرابي المناهضة للسلطة المصرية (الخديوي وأعوانه) التابعة بشكل كلي للاستعمار البريطاني (أليس في هذا انحياز للغرب الاستعماري مقابل الشرق؟).

يتابع أنغلز أيضاً «وأني لأعتقد أننا نستطيع تماماً أن نكون في جانب الفلاحين المضطهدين دون أن نتقاسم معهم الأوهام التي يغذونها في اللحظة الراهنة[...]، وأن نكون ضد أعمال العنف التي يرتكبها الإنكليز بينما لا ننحاز مطلقا إلى جانب خصومهم العسكريين الحاليين في جميع مسائل السياسة الدولية[10]».

والسؤال هنا ما فائدة التعاطف مع الفلاحين المضطهدين المصريين؟ يبدو أن أنغلز هنا يخرج عن النسق الفكري الغربي الاستشراقي خروجاً عاطفياً فقط، أما في معرض الحديث عن التحليل السياسي أو عن السياسة الدولية. فهو إلى جانب (عدوه الطبقي) المتمثل بالبرجوازية الاستعمارية الغربية كما يفهم بشكل ضمني من سياق الرسالة السابقة.

وفي التحليل الأخير نجد في رسالة أنغلز السابقة غياب كامل للفهم المادي للتاريخ وحضور واضح للفهم الخاضع للمكتوب الاستشراقي بدليل المعطيات التاريخية عن أحمد عرابي وحركته التي سنكتفي بعرض نقطتين تدحض رؤية أنغلز السابقة:

1 -إن أحمد عرابي ينتمي إلى طبقة الفلاحين. أما لقب الباشا لم يطلبه عرابي لكن الخديوي توفيق هو الذي أصر على ذلك[11].

2 -إن برنامج عرابي يظهر تقدمية حركته ويفسر تعاطف ومساندة معظم أنصار الحركة الاشتراكية الأوروبية لحركته، وهذه أهم النقاط في برنامجه:

أ –«إلغاء نظام السخرة الذي يفرضه الباشوات الأتراك على الريف المصري

---

[9]المرجع السابق ذاته، ص 358.

[10]المرجع السابق ذاته، ص 358.

[11]انظر بهذا الصدد: السعيد، رفعت. الليبرالية المصرية، دار الأهالي، دمشق، ط 1، 2003، ص 46.

ب –القضاء على إقطاع الماء واحتكار الباشوات الأتراك لمياه الفيضان

ت –حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم في أجسام الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة

ث –إصلاح القضاء فهو ملئ بالفساد

ج نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء

ح انتخابات حرة لبرلمان جديد

خ إلغاء العبيد[12]».

ولكن يجب أن نوضح أن موقف أنغلز السابق جاء من منطلق نظري سوف نؤكد عليه مراراً في الفقرات التالية وهو اعتقاده أن الاستعمار الرأسمالي سيؤدي مهمة تقدمية غير واعية وهي تحطيم البنيات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية أي أن الاستعمار الرأسمالي سيحقق جزءاً من عمل التيارات الأممية الاشتراكية. ومن هنا نستطيع القول إن النزعة الاستشراقية المتمثلة بالمركزية الاوروبية هي هامشية في رسالة أنغلز السابقة.

وفي المخطوطة الشهيرة التي كتبها ماركس في عام 1857 والتي عثر عليها غير كاملة بعد وفاته،وعرفت باسم **الغروندريسه**، وفي القسم غير المنتهي من المخطوطة، وضع ماركس مجموعة من الأسئلة حول الفن الإغريقي محاولاً اختبار نظريته حول العلاقة بين البنية الفوقية والبنية التحتية. يكتب ماركس في هذا الخصوص: «الفن الإغريقي يشترط وجود الأساطير الإغريقية أي الطبيعة والعلاقات الاجتماعية وقد أعيدت صياغتهما بطريقة فنية لا واعية من قبل الخيال الشعبي. تلك هي مادته. إنه لا يستند إلى أية أسطورة كانت، أي أنه ليس مجرد إعادة صياغة فنية لا واعية للطبيعة يتم اختيارها بشكل اعتباطي (والطبيعة عنّا تعني كل شيء موضوعي وبالتالي فهي تشمل المجتمع). إذ لم يكن ممكناً للأساطير المصرية أن تكون أساس أو رحم الفن الإغريقي. ولكن يشترط على أية حال، أسطورة [13]». السؤال المطروح هنا لماذا لا يمكن للأساطير المصرية أن تكون أساس الفن الإغريقي؟ هل لأن الأساطير المصرية نتاج ديانة شرقية أو مجتمع استبدادي شرقي؟ تبقى الإجابة معلقة، لاسيما أن هناك رؤية استشراقية تقول بأسطورة العقل اليوناني الذي نتج من ذاته أو من مقومات اجتماعية يونانية فقط من دون الاستفادة من أية حضارة شرقية سابقة.

ب– "إيران": تفوق الغرب ودونية الشرق

في مقالة ماركس المعنونة "إيران والصين" المنشورة في **نيويورك ديلي تربيون** بتاريخ 5 حزيران عام 1857 يكتب ماركس: «إن الضباط الانكليز والفرنسيين والروس قد جربوا كلٌّ بدوره أن ينظموا الجيش الإيراني. وتعاقبت الأنظمة، لكن كل نظام منها أخفق بدوره من جرّاء الحسد والمكائد والجهل والجشع والفساد، هذه الصفات التي كانت من شيمة هؤلاء الشرقيين الذين يراد تكوينهم كضباط وجنود أوروبيين[14]».

وهكذا، لم يصل الجيش الإيراني إلى درجة تنظيمية عسكرية متقدمة بسبب طبيعة عناصره الشرقية القائمة على الجهل والفساد، فماركس هنا نسي بالكامل التحليل الطبقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي وحضر في ذهنه

---

[12] المرجع السابق ذاته، ص42.

[13] ماركس، كارل .الغروندريسة "أسس نقد الاقتصاد السياسي "، ترجمة عصام الخفاجي، دار ابن خلدون، بيروت، ط 1، 1984، ص 138.

[14] ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك . في الاستعمار، ص 126.

التعميمات القائمة على الطبائع والتوصيفات الثابتة للبشر ليظهر التأثير الكبير للمكتوب الاستشراقي القائم على التمييز بين التفوق الغربي والدونية الشرقية.

يتابع ماركس:«إن الصعوبة الرئيسية[...] هي في خلق هيئة من الضباط والرقباء تدربت على النظام الأوروبي الحديث وتحررت كلياً من الأوهام والذكريات الوطنية القديمة في الشؤون العسكرية، وأهلت كي تنفخ الحياة في التكوين الجديد. وإن هذا ليتطلب وقتاً طويلاً، ومن المؤكد أنه سيصادف معارضة عنيدة جداً من جانب الجهل والوهم ونفاذ الصبر، هذه العلل التي يتصف الشرق بها[15]».

إذاً الجهل ونفاذ الصبر هي الطبائع والصفات التي يتصف بها الشرق (كل الشرق)، وهي التي ستعيق دخول الحداثة الأوروبية الغربية إليه. فماركس الرافض للفلسفة المثالية القائمة على فكرة الطبائع الثابتة والتعميمات والتجريدات التي تبعدنا عن الواقع يقع في فخها تحت تأثير الرؤية الاستشراقية السائدة في عصره. لنقارن بين نصوص ماركس السابقة وبين نصوص كثير من المستشرقين. فعلى سبيل المثال لا الحصر، ما يقوله لين المستشرق المعروف [16]عن الإنسان الشرقي، هو أنه«متراخي الهمة، مؤمناً بالخرافات، مفرطاً في الملذات الجسدية [17]». أو مع ما يقوله بورتون [18] عن الشرق العربي: «هذا هو الكيف عند العرب. إنه الاستمتاع بخدر الحواس، وبالهدوء الحالم، وبإشادة قصور بالهواء. وهذا النمط الآسيوي من الحياة يقابله نمط الحياة الأوروبية المفعمة بالنشاط، والاندفاع، والعزم[19]».

ت– "الصين": دور الغرب في يقظة الشرق

في المقالة المعنونة "الثورة في الصين وفي أوروبا" والمنشورة في **نيويورك ديلي تريبيون** بتاريخ 14 حزيران عام 1853 يكتب ماركس (في صدد حديثه عن حرب الأفيون الأولى التي قامت في 1839 – 1842 وهي حرب شنتها انكلترا ضد الصين[20]): «أنه من نافلة القول تقريباً الإشارة إلى أن الإمبراطور وحاشيته من الموظفين الكبار الكسالى فقدوا سيادتهم بقدر ما كان الأفيون يحقق السيادة على الصينيين، بحيث يتراءى كما لو أن التاريخ أراد أن يسكر بادئ الأمر هذا الشعب بكامله قبل أن يستطيع إنهاضه من بلاهته الوراثية [21]». إن تأثير الفضاء الفكري الاستشراقي دفع ماركس إلى وصف شعب شرقي كبير هو الشعب الصيني بالبلاهة الوراثية أي ضعف فكري وثقافي وانحطاط راسخ وعميق تاريخياً، وهذا الفهم يناقض القراءة التاريخية الموضوعية، فالصين «كانت حتى مطلع القرن السادس عشر أكثر تقدماً من المجتمع الغربي ولم ينحفر الانفصام والبعد إلا مع تطور الرأسمالية [22]». يتابع ماركس في مقالته ذاتها: «فالصين حققت انطلاقتها الكبيرة بفضل المدفع البريطاني عام 1840 هذا المدفع الذي حطم سلطان الإمبراطور وأجبر

---

[15]المرجع السابق ذاته ، ص 128.

[16]إدوارد لين (1801 – 1876) مستشرق انكليزي وصاحب العمل الاستشراقي الشهير "مسالك المصريين المعاصرين وعاداتهم" ويعتبر من مؤسسي الاستشراق.

[17]قباني، رنا. أساطير أوروبا عن الشرق، ترجمة صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1988، ص 73.

[18]فرنسيس بورتون (1821 – 1890) مستشرق بريطاني ترجم حكايات ألف ليلة وليلة.

[19]قباني، رنا. أساطير أوروبا عن الشرق، ص 91.

[20]وسميت حرب الأفيون لأن الحرب نشبت بسبب إتلاف السلطات الصينية لمخزونات من الأفيون تخص تجارا أجانب انظر: ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 369.

[21]ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 18.

[22]ماركس؛ أنغلز؛لينين. في المجتمعات قبل الرأسمالية، نصوص مختارة من ماركس وأنغلز ولينين، مقدمة موريس غودوليه، ترجمة فؤاد أيوب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، 1994، ص 166. (الاقتباس من مقدمة موريس غودوليه)

المملكة السماوية على الاتصال بالعالم الأرضي. لقد كانت العزلة التامة الشرط الأولي لبقاء الصين القديمة. وحين انتهت هذه العزلة نهاية عنيفة بفضل إنكلترا فلم يكن بد أن يترتب الانحلال على ذلك بصورة مؤكدة مثلما يحدث لأي مومياء محفوظة في نعش مغلق بإحكام حين تجعل في اتصال مع الهواء الطلق[23]».

لنلاحظ دور الاستعمار الغربي الرأسمالي في يقظة الشرق فالغزو البريطاني للصين كان السبب في صحوة الصين من أحلامها واقترابها من الواقع فهي كانت أشبه بالمومياء المحبوسة في صندوق مغلق ولكن الغرب استطاع فتح الصندوق وجعل المومياء تتصل بالهواء أي بالحياة الحقيقية. لا شك أن ماركس هنا يتحدث من منطلق نظري وهو أن الاستعمار الرأسمالي الغربي والغزو الاقتصادي البرجوازي الغربي سوف يؤدي مهمة تقدمية غير واعية عندما يحطم البنيات ما قبل الرأسمالية في البلدان الشرقية.

يكتب ماركس في البيان الشيوعي: «تجر البرجوازية إلى تيار المدنية كل الأمم، حتى أكثرها همجية، تبعاً لسرعة تحسين جميع أدوات الإنتاج وتسهيل وسائل المواصلات إلى ما لا حد له. فإن رخص منتجاتها هو في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ما هنالك من أسوار صينية، وتنحني أمامها رؤوس أشد البرابرة عداء وكرها للأجانب. وتجبر البرجوازية كل الأمم، تحت طائلة الموت، أن تقبل الأسلوب البرجوازي في الإنتاج،وأن تدخل إليها المدنية المزعومة، أي أن تصبح برجوازية، فهي، باختصار، تخلق عالما على صورتها ومثالها. وأخضعت البرجوازية الريف للمدينة[...] كذلك أخضعت البلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتمدنة، الأمم الفلاحية – للأمم البرجوازية، الشرق للغرب[24]».

فماركس يعتقد (كما هو واضح في النص) أن البرجوازية الأوروبية بفعل تقدميتها الإنتاجية سوف تعمم نمط إنتاجها على كل الأمم ومنها الشرقية وتقودها نحو الحداثة، لكن هذا الفهم تراجع عنه ماركس إلى حد ما في المراحل الأخيرة من حياته بعد أن بدأ يدرك أن الرأسمالية الغربية لا تعمل على خلق عالم على صورتها وإنما تعمل على تحكم بالأمم الاخرى (منها الشرقية) وفق مصالحها، أي العمل على تفكيك هذه الأمم وتدميرها اقتصادياً واجتماعياً لتبقى تحت السيطرة، هذا الأمر لم يتضح على أرض الواقع إلا في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والذي لم يكتشفه ويحلله بشكل حقيقي إلا لينين في كتابه **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** . يكتب لينين موضحاً ماهية الإمبريالية:«إن الاحتكارات والطغمة المالية والنزوع إلى السيطرة بدلاً من النزوع إلى الحرية، واستثمار عدد متزايد من الأمم الصغيرة أو الضعيفة من قبل حفنة صغيرة من الأمم الغنية أو القوية وكل ذلك قد خلق السمات المميزة للامبريالية[25]»

ولكن رغم ذلك يعتبر توصيف ماركس للصين بالمومياء في إطار التأثر بالمكتوب الاستشراقي السائد في عصره، لنقارن ذلك مع ما قاله كنغليك[26] الرحالة المستشرق في توصيفه للشرقي أنه ليس إلا «مومياء ناطقة وأنه مدعاة للتسلية أحياناً لكنه مدعاة للازدراء دائماً[27]».

---

[23]ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 19، 20.

[24]ماركس، أنغلز. مختارات، ج 1، دار التقدم، موسكو، د. ط، د. ت، ص 55، 56.

[25]لينين. الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، دار التقدم، موسكو، د.ط ، د.ت. ص. 168.

[26]الكسندر وليم كنغليك (1891 – 1891) رحالة ومستشرق انكليزي من آثاره "رحلة كنغليك الى المشرق 1834– 1835".

[27]قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق، ص 25.

وفي المقالة نفسها يكتب ماركس «إن الصينيين، على الرغم من أنهم مستعدون كل الاستعداد، كما هي حال جميع الشعوب في أطوار الاختلاج الثوري، لأن يبيعوا للأجنبي كل البضائع الضخمة التي هي في متناول أيديهم، سوف يعمدون إلى الاكتناز، كما اعتاد الشرقيون أن يفعلوا حين يتوقعون حدوث تغييرات كبيرة [28]». لنلاحظ التعميم الاستشراقي اللاتاريخي، فالشرقيون في الصين والهند ومصر و...إلخ كلهم عندهم عادة ثابتة لا تتغير في أوقات الأزمات وهي الاكتناز.

في المقالة المعنونة "الحملة الانكليزية الجديدة في الصين"، والمنشورة في **نيويورك ديلي تريبيون** عام 1857، يكتب أنغلز: «وهم قد أظهروا (الصينيون) في العمليات الحربية الأخيرة في نهر كانتون مهارة فائقة في المدفعية وفي فن الدفاع بحيث تحوم الشكوك حول وجود أوروبيين فيما بينهم [29]». فالشرقي إذاً استطاع استخدام الأدوات الحديثة بمهارة (المدفعية مثلاً) أو أثبت جدارة في أمرٍ ما لابد أن تحوم الشكوك حول ذلك لأنه أمر غريب والشك سيكون متمحوراً بالتأكيد حول وجود الأوروبيين وراء تلك المهارة أو الجدارة.

وهذه رؤية استشراقية واضحة تُظهر تفوق الغرب ودونية الشرقي، نجدها في نصوص كثير من المستشرقين، لنقارن مثلاً بين ما كتبه أنغلز وبين قول لورنس[30] التالي: «ليس بمقدور الساميين أن يدركوا ظلال الألوان[...] فهم ذوو عقل محدود وذكاؤهم عاطل عن العمل ولا يميلون إلى اقتحام الصناعات الكبرى ولا إلى الأعمال التي تتطلب تنظيماً فكرياً أو جسدياً[31]».

ج – " الجزائر": تسطّح التاريخ

في المقالة المعنونة "الجزائر" المنشورة في **نيو اميركان سيكلوبيديا** المجلد الأول عام 1858، يكتب أنغلز واصفاً الطبيعة السكانية للجزائر: «أن القبائليين عرق نشيط،[...] أما العرب فيحيون، وفقاً لعادات أسلافهم، حياة بدوية وينقلون خيامهم من مكان إلى أخر وفقاً لمتطلبات المرعى وظروف أخرى. ولعل المغاربة هم أقل سكان البلاد جدارة بالاحترام. فهم يعيشون في المدن ويميلون أكثر من العرب أو القبائليين إلى حياة الترف، ويشكلون من جراء الضغط المتواصل للحكام الأتراك عرقاً خائفاً قد احتفظ مع ذلك بقسوته وطابعه الحقود، في حين مستواهم الأخلاقي واطئ جداً[32]».

كأننا أمام قول لمستشرق يتأمل في واقع يتسطح في أحداث لا يحكمها منطق السببية الموضوعية، أو كأننا أمام رحالة من القرن التاسع عشر لا يرى سوى أعراق يكتفي بوصفها العام دون البحث عن الشروط التاريخية والاجتماعية التي جعلتها تأخذ هذا الشكل التاريخي الخاص. ويبدو أن أنغلز هنا ينسى التحليل الملموس للواقع الملموس، ويُغيب الفهم المادي للتاريخ، و يحل محل ذلك التصنيف العرقي (عرق نشيط، عرق خائف احتفظ بقسوته وطابعه الحقود)، والتقييم الأخلاقي (أقل سكان البلاد جدارة بالاحترام، مستواهم الأخلاقي واطئ جداً).

أما بخصوص العرب فيُظهر أنغلز جهلاً بالتاريخ، مع أنه يذكر في بداية مقالته ذاتها أن العرب من "ذرية الفاتحين المسلمين"، فالعرب عنده هم دائماً بدو ينتقلون من مكان إلى أخر، وهذه نظرة استشراقية منتشرة كثيراً على

---

[28] ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 22.

[29] المرجع السابق ذاته، ص 125.

[30] توماس ادوارد لورنس (1888 – 1935) ضابط بريطاني ساعد القوات العربية عام 1916 ضد الامبراطورية العثمانية، كتب سيرته الذاتية في كتاب حمل اسم اعمدة الحكمة السبعة.

[31] قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق، ص 164.

[32] ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 180.

مستوى الشعبي الأوروبي. رغم أن أنغلز يُظهر فهما مختلفاً عن العرب في مقدمة كتابه **ديالكتيك الطبيعة**، يكتب قائلاً: «بينما كان الفكر الحر، المتفائل والمفعم حباً بالحياة، الذي انتقل من العرب وتغذى بالفلسفة اليونانية المكتشفة حديثاً، يضرب جذوره أعمق فأعمق عند الشعوب اللاتينية ممهداً لمادية القرن الثامن عشر[33]».

وفي المقدمة ذاتها يكتب أيضاً: «كان العرب قد خلفوا نظام العد العشري، ومبادئ الجبر، والكتابة الحديثة للأعداد (الأرقام)، والخيمياء، في حين لم تترك القرون الوسطى المسيحية شيئاً وراءها[34]». نلاحظ الاختلاف بين الرؤية الواردة في مقالة "الجزائر" عن العرب (المكتوبة عام 1857) والفهم العميق للحضارة العربية الوارد في مقدمة كتابه ديالكتيك الطبيعة (المكتوبة عام 1876). نعتقد أن سبب الاختلاف يعود إلى جهل أنغلز بالشرق العربي وحضارته، وبالتالي تأثره بالمكتوب الاستشراقي عندما كتب مقالة الجزائر عام 1857. بالمقابل تعمقه بالإنجازات العربية العلمية والفلسفية عندما كتب كتابه ديالكتيك الطبيعة، فهذا التفوق العربي لا يمكن أن يخرج من بدو يتنقلون مع خيامهم من مكان إلى أخر.

ح- الهند: ماركس واستشراق إدوارد سعيد:

يعتبر إدوارد سعيد أن الفكر الاستشراقي يمثل الفضاء الثقافي العام في الغرب الذي لا يستطيع أي مفكر أو منظر أن يقاوم ضغوطه حتى لو كان فكر ماركس الأممي الداعي إلى تحرر الإنسانية من الاستغلال دون تمييز بين شرق وغرب، ولكي يثبت ذلك استعان بنصين لماركس (كلاهما مرتبط بالهند). الأول من مقالة ماركس المعنونة "الحكم البريطاني للهند"، والمنشورة في **نيويورك ديلي تريبيون** في 25 حزيران عام 1853، والثاني من مقالة ماركس "النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند"، المنشورة في **نيويورك ديلي تريبيون** في 8 آب 1953. سنعرض النصين أولاً ثم نقدم رؤية وتحليل إدوارد سعيد لهما ونناقش وجهة نظره في الوقت نفسه، ومن خلال ذلك نبحث عن الأفكار الاستشراقية في هذين النصين.

النص الأول: «ومهما تكن رؤية هذه الكوكبات من المنظمات الاجتماعية البطريركية النشيطة والمسالمة جارحة للشعور الإنساني وهي تتفكك وتنحل إلى وحداتها المركبة، ويلقي بها إلى بحر من الآلام والعذابات، بينما أعضاؤها الفرادى يفقدون في الوقت نفسه شكل حضارتهم القديم ووسائط معيشتهم التقليدية، فإنه يجب ألا ننسى أن هذه الجماعات القروية الرعوية، رغم مظهرها المسالم وغير المؤذي، قد كانت على الدوام الأساس المتين الذي ينهض عليه الطغيان الشرقي، وأنها حصرت الذهن البشري ضمن أضيق نطاق ممكن، محولة إياه إلى الأداة اللينة للتطير، مستعبدة إياه لقواعد تقليدية معترف بها، حارمة إياه من كل عظمة ومن جميع الطاقات التاريخية[...] وصحيح أن دوافع إنكلترا حين فجرت الثورة الاجتماعية في هندستان لم تكن سوى أحط المصالح وأسفهها، وأنها كانت تتصرف بطريقة بلهاء في سبيل بلوغ غاياتها. لكن ليس ذلك بيت القصيد. إن بيت القصيد هو ما إذا كان في مقدور الجنس البشري أن يحقق مصيره دون ثورة أساسية في الحالة الاجتماعية في آسيا؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد كانت انكلترا، كائنة ما كانت جرائمها، الأداة غير الواعية التي استخدمها التاريخ في إحداث تلك الثورة. وعندئذ، ومهما كان مشهد انهيار هذا العالم القديم مريراً بالنسبة إلى عواطفنا الشخصية، فإن لنا الحق، من وجهة نظر التاريخ، أن نهتف مع غوته:

"أيمكن لهذا العذاب أن يؤلمنا،

طالما أنه يحمل إلينا مسرة أعظم؟

---

[33] **أنغلز، فريدريك، ديالكتيك الطبيعة، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 1988، ص 26.**

[34] **المرجع السابق ذاته، ص 28.**

ألم تذهب كوكبات من الأنفس سدى

تحت نير تيمورلنك الطاغية ؟"، **الديوان الشرقي** لغوته[35]».

النص الثاني: «إن على إنكلترا أن تنجز مهمة مزدوجة في الهند، إحداهما مدمرة، والأخرى محيية – القضاء على المجتمع الآسيوي القديم، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في الهند[36]».

إن إدوارد سعيد في تحليله للنص الأول يؤكد أن ماركس خرج من البنية الثقافية الغربية الاستشراقية خروجاً عاطفياً، وذلك عندما يشعر بالاشمئزاز والألم من رؤية عذابات الشعب الهندي نتيجة الاستعمار الإنكليزي والغزو الاقتصادي للصناعات البريطانية الذى دمر البنية الاجتماعية البطريركية القديمة في الهند. لكن إدوارد سعيد يقرر أن تعاطف ماركس سرعان ما يتلاشى أمام ضغط البنية الفكرية الغربية الاستشراقية والمكتوب الاستشراقي بدليل الاقتباس الأخير المأخوذ من **الديوان الشرقي** لغوته. يكتب إدوارد سعيد: «الاقتباس الذي يدعم منظومة ماركس في العذاب الذي ينتج المتعة، مأخوذ من الديوان الغربي الشرقي، وهو يحدد هوية مصادر تصور ماركس للشرق. وهي مصادر رومانسية بل مسيحانية أيضاً: فالشرق أقل أهمية، من حيث هو مادة إنسانية، منه من حيث هو عنصر في مشروع رومانسي للخلاص. وهكذا فإن تحليلات ماركس الاقتصادية تغدو ملائمة تماماً لمشروع رومانسي شائع، رغم أن إنسانية ماركس، وتعاطفه مع بؤس البشر، قد أُوقظا بشكل جلي. لكن في نهاية الأمر، يكون الرابح الرؤيا الرومانسية الاستشراقية[37]».

نرى في تحليل إدوارد سعيد قسوة في التعامل مع نص ماركس، حيث يستخرج منه استنتاجات غريبة، فالقول إن مشروع ماركس هو مشروع رومانسي للخلاص فهذا قول يتناقض مع جهد ماركس الفلسفي والعلمي والسياسي الذي بذله بعقل بارد. بمعنى أخر، لا يعالج ماركس القضايا بمنظار العاطفة والأخلاق كما هو حال أي مشروع رومانسي، إنما من خلال منظار التاريخ حيث لا مكان للعواطف والأخلاق والرغبات. لننظر قول ماركس الذي ختم فيه نصه السابق قائلاً: "لنا الحق، من وجهة نظر التاريخ، أن نهتف مع غوته[...]" (انظر النص الأول). أما اقتباس ماركس لمقطع من ديوان غوته فهي طريقة يتبعها ماركس كثيراً، فهو يستعين دائماً بكلمات ومقاطع شعرية أو نثرية تساعد بتوضيح فكرته أو جماليتها. فعلى سبيل المثال عندما كان يتحدث عن الثورات البروليتارية كيف تنتقد ذاتها على الدوام وكيف تتكص المرة تلو المرة إلى أن ينشأ وضع جديد يجعل أي رجوع إلى الوراء مستحيلاً. كتب ماركس في نهاية فكرته:«وتصرخ الحياة نفسها قائلة بصرامة: هنا الوردة، فلترقص هنا![38]». وهذه العبارة تحريف لعبارة«من خرافة لمؤلف الخرافات إيزوب من اليونان القديمة، وتحكي عن متبجح تباهى بأن لديه شهوداً يؤكدون أنه قفز ذات مرة في رودوس قفزة رائعة. فقالوا له: ولم الشهود: هنا رودوس، فلتقفز هنا[39]».

هل نستطيع أن نقول أن ماركس يؤمن بالخرافات؟ ما نرمي إليه هنا هو القول إن النص، أي نص كان، لا يفسر من خلال اقتباساته إنما يفسر من المضمون الفكري للنص ذاته بل أكثر من ذلك نقول أن النص هو الذي يفسر الاقتباس وليس العكس.

---

[35] ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 41، 42.

[36] المرجع السابق ذاته، ص 85.

[37] سعيد، ادوارد، الاستشراق، ص 171.

[38] ماركس، أنغلز . مختارات، ج1، دار التقدم، موسكو، د.ط، د. ت، ص 157.

[39] المرجع السابق ذاته، ص 311.

وبالنسبة لقول إدوارد سعيد أن تعاطف ماركس ضاع لتحل محله الرؤيا الاستشراقية، نقول نعم تعاطف ماركس ضاع أمام تساؤله المنسجم مع فهمه المادي التاريخي وهو هل في مقدور الجنس البشري أن يحقق مصيره دون ثورة أساسية في الحالة الاجتماعية السائدة في آسيا. أي أن قضية ماركس الأساس هي «قضية الثورة وضرورتها، كشرط لتحرير الإنسان[40]».

يكتب المفكر الماركسي الهندي إعجاز أحمد بخصوص السؤال السابق: «قد يكون [أي السؤال السابق] محل اعتراض بالنسبة للعقل ما بعد حداثوي (يقصد إدوارد سعيد وميشيل فوكو) نظراً لإيمان ماركس الصريح، الموروث من أرقى التقاليد التنويرية، بوحدة التحرر الإنساني، وكونيته، وإمكانيته الفعلية[41]».

نقطة أخيرة بخصوص تحليل إدوارد سعيد للنص الأول تتعلق بمصادر تصور ماركس للشرق التي يحصرها سعيد بالمصادر الرومانسية المسيحانية استناداً لاقتباس ماركس لشعر غوته من **الديوان الشرقي** ، لكن القراءة الموضوعية لنصوص ماركس التي يحضر فيها الشرق كمادة للتفكير تبين أنه لم يعتمد على جهده الذاتي في البحث كما هي عادته في بحوثه الأخرى، إنما اعتمد على مصادر حددناها بمصدرين أساسيين **فلسفة التاريخ** (لدى هيغل و هيردر) و**أدب الرحلات** لـ برنييه.

1 - فلسفة التاريخ (هيردر، هيغل)

تأثر ماركس (وكذلك أنغلز) في تفكّره في الشرق بثقافته الألمانية الفلسفية والتاريخية، وبشكل أساسي لدى هيردروهيغل، وكلاهما يمكن تصنيفهما في إطار فلسفة التاريخ الملوثة بقدر كبير بأيديولوجيا الاستشراق القائمة على المركزية الأوروبية في تناولها لتاريخ العالم.

فهيردر، في كتابه **تأملات في تاريخ البشر** ، يتصور أن الصين على سبيل المثال «مجتمعاً زراعياً تسوده دولة أبوية عطلت في الشعب كل قدرة على التطور العقلاني وحولت البلاد إلى طلل قديم راكد عند حدود العالم[42]».

وهيغل في كتابه **محاضرات في فلسفة التاريخ** ، الجزء الثاني المختص بالعالم الشرقي، يعتبر أن رحلة الفكرة أو الروح تبدأ من الشرق ولا تكتمل إلا في أوروبا، فالتاريخ عرض للروح والروح ماهيتها الحرية ومسار التاريخ يمر بمراحل تمثل كل مرحلة درجة من الحرية والمرحلة الأولى تبدأ في العالم الشرقي (الصين، الهند، إيران، مصر). فبلدان الشرق هي الحلقة الأضعف في رؤية هيغل التاريخية[43].

إذاً كما هو واضح كان لدى ماركس كم قليل من المعلومات الموضوعية حول الشرق، ولذلك عمل على ترميمها من أفكار مستقاة من فلسفة التاريخ التأملية، فعلى سبيل المثال، حديث ماركس عن الجماعات القروية المسالمة والمنغلقة في الهند (كما يظهر في النص الأول المذكور سابقاً) والتي تشكل أساس الطغيان والاستبداد هو فكرة مستمدة من هيغل بشكل حرفي[44].

---

[40] عامل، مهدي، ماركس في استشراق إدوارد سعيد "هل القلب للشرق والعقل للغرب؟"، دار الفارابي، ط 3، 1990، ص 113.

[41] أحمد، إعجاز؛ سعيد، إدوارد، الاستشراق وما بعده "إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي"، ترجمة ثائر ديب، دار ورد، دمشق، ط 1، 2004، ص 124.

[42] ماركس؛ أنغلز؛ لينين . في المجتمعات قبل الرأسمالية "نصوص مختارة من ماركس وأنغلز ولينين،" مقدمة موريس غودوليه، ص 34. (الاقتباس من مقدمة موريس غودوليه)

[43] انظر: هيغل . محاضرات في فلسفة التاريخ، ج 2 "العالم الشرقي"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط 3، 2007، (انظر بشكل خاص المقدمة العامة للمترم "هيغل والعالم الشرقي" ص 7-52).

[44] انظر: أحمد، اعجاز، الاستشراق وما بعده، ص 118.

2 – أدب الرحلات لدى برنييه

لقد أنتجت أوروبا كمّاً كبيراً من أدب الرحلات الخاص بالشرق، وذلك منذ ظهور الطبقة البرجوازية ظهوراً حقيقياً. وهذا الإنتاج أصبح هائلاً في عصر الاستعمار لأن الرحالة في الغالب «سافروا لخدمة وطنهم وكانوا عينه التي ترى وصوته الذي يروي. ولهذا كانوا غالباً ما يتمتعون بالدعم المالي الرسمي [45]». نقول ما قلناه للتشكيك بمعظم المعلومات التي جمعوها حول الشرق لأن غايتها الأساس هي جعل «الشرق مختلفاً عن الغرب وتنفيه إلى عالم (الآخر)، وتخفضه إلى مرتبة الغير الذي لا صلاح له[46]». وكل ذلك من أجل التبرير للتدخل الأوروبي في الشرق.

ومن هؤلاء الرحالة برنييه الذي لديه رحلات تضم وصفاً لتركيا وإيران والهند والذي اعتمد عليه ماركس كثيراً في بناء فهمه لأسلوب الإنتاج الآسيوي القائم على التمييز الاقتصادي لآسيا عن أوروبا على أساس مبدأ لا ملكية خاصة للأرض في الشرق حيث الملك أو الدولة هي التي تتولى إدارة الإنتاج وتكون الأراضي في يدها وهي التي توزعها لمن يستثمرها. يكتب ماركس في رسالته إلى أنغلز في 2 حزيران عام 1853: «إن برنييه على حق حين يجد الشكل الأساسي لجميع الظواهر في الشرق – إنه يتحدث عن تركيا، وعن إيران، وعن هندستان – في انعدام الملكية العقارية الخاصة. ذلك هو المفتاح الحقيقي، حتى للسماء الشرقية[47]».

وهذا دليل على الضعف العلمي والنظري في نصوص ماركس حول الشرق. يكتب إعجاز أحمد بخصوص ذلك: «فمما يدل على قلة معارف ماركس عن الهند حين بدأ كتابة تلك القطع [يقصد النصين الذين اعتمدهما إدوارد سعيد في تحليله] واقعة أنه كان يحسب أن حق ملكية جميع الأراضي الزراعية كان في يد الملك، وكان قد أخذ هذه الفكرة من برنييه وسواه، وكانت السلطات البريطانية قد فعلت الكثير لتعزيزها [48]». ونقول ضعف نظري أيضاً لأن ماركس يعتمد على معلومات رحالة غير مختص (فبرنييه كان طبيباً)، وهذا دليل أيضاً على أن كتاباته عن الشرق كانت في بداياتها وهي أقرب إلى التأمل والتخمين.

أما بالنسبة للنص الثاني يعود إدوارد سعيد إلى اتهام ماركس بالاستشراق الرومانسي الخالص، فيكتب: «تشكل فكرة إعادة الحياة إلى آسيا فاقدة الحياة، جوهرياً، جزءاً من الاستشراق الرومانسي الخالص [49]». فإدوارد سعيد هنا يستبدل فكرة ماركس المنسجمة مع رؤيته لدور الاستعمار الانكليزي في تدمير البنية الاجتماعية الاقتصادية القديمة والسابقة للرأسمالية في الهند، أي القضاء على المجتمع الآسيوي القديم والتأسيس للمجتمع البرجوازي وذلك بالتحريض على ثورة برجوازية في الهند، بفكرة أخلاقية وهي إعادة الحياة إلى آسيا فاقدة الحياة «فالفكرة الأولى يحكمها منطق الفكر المادي [...] أما الثانية، فيحكمها منطق الفكر الديني في مفهوم الخلاص[50]».

فماركس عندما كتب هذين النصين كان فكره تحت تأثير المعطيات الواقعية التي جرت في الولايات المتحدة، حيث استطاع الاستعمار الأوروبي تدمير البنيات الاجتماعية والاقتصادية القديمة وتأسيس مجتمعات رأسمالية، ولكن هذا الأمر لم يتكرر والسبب هو انتقال الرأسمالية من مرحلة التنافس إلى مرحلة الاحتكار (الامبريالية). يكتب المفكر الماركسي إعجاز أحمد بخصوص هذه القضية ما يلي: «ما أعطى هذه التأملات (ويقصد هنا نصي ماركس السابقين

---

[45]قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق، ص 21.

[46]المرجع السابق ذاته، ص 20.

[47]ماركس؛ أنغلز؛ لينين. في المجتمعات قبل الرأسمالية " نصوص مختارة من ماركس وأنغلز ولينين"، ص 209.

[48]أحمد، اعجاز، الاستشراق وما بعده، ص 130.

[49]سعيد، ادوارد، الاستشراق، ص 171.

[50]عامل، مهدي، ماركس في استشراق إدوارد سعيد، ص 120

بخصوص الهند) ميلها التقدمي المحدد، [...] هو تجربة الولايات المتحدة، حيث راح ينبثق مجتمع رأسمالي قوي انطلاقا من دينامية كولونيالية متوحشة – أشد توحشا، في حقيقة الأمر، من تلك التي عرفتها الهند – وكان هذا المجتمع لا يزال حتى ذلك الحين، خلال خمسينيات القرن التاسع عشر، في سياق استكمال ثورته البرجوازية، في صورة حرب أهلية وشيكة. كان ماركس يتساءل، على الرغم من تراخي الصراع في الهند وضعفه، أمن الممكن ألا تسير الهند[...] في الطريق الذي سارت فيه الولايات المتحدة[51]».

ونحن هنا بخصوص مناقشة تحليل إدوارد سعيد لا نريد إعلان الخروج الكامل لنصوص ماركس عن الهند عن الفكر الاستشراقي بل نريد أن نقول أن تغلغل الفكر الاستشراقي كان في سياق مختلف عن السياق الذي قرره إدوارد سعيد، فنحن نرى حالتين استشراقيتين في نصوص ماركس الأولى تتعلق بركود الهند وسيطرة الاستبداد والطغيان الشرقي فيها. جاءت هذه الفكرة كنتيجة لاعتماد ماركس على كتابات غير موضوعية وملوثة بالفكر الاستشراقي (ككتابات هيغل وبرنييه)، بالإضافة إلى أن صورة الشرق الخامل والثابت الذي لا يتغير كانت جزءاً من رؤية أوروبا في القرن التاسع عشر، وقد أثبتت الكثير من الدراسات تهافت ذلك يكتب بول بيروك «إذا ما استثنينا المجتمعات المسماة بدائية، استطعنا القول، بكفاية من اليقين، أن الفوارق في مستويات التنميات الاقتصادية والتقنية في مختلف الأقطار، كانت ضئيلة الأهمية حتى نهاية القرن السابع عشر، فمستوى البلاد المتقدمة حاليا كان إذ ذاك قريباً، لا بل في حالة ما أو في بعض المجلات، أدنى من مستوى أكثرية الأقطار المتخلفة في أيامنا فبين فرنسا (لويس الرابع عشر) وبريطانيا (فردريك الأول) وبروسيا (غليوم الثاني) وروسيا (بطرس العظيم) من جهة وبين الهند (أورانجزيت) وصين (كيانغ – هي) من جهة أخرى. إذا ما اكتفينا بالحديث عن اوروبا وعن الدولتين الرئيسيتين في آسيا، كانت اختلافات عميقة في البنيات الاجتماعية والدينية التي كانت تشكل هذه الأقطار. وكان ثمة اختلافات مناخية مهمة [...] ولكن إذا ما تناولنا هاتين الزمرتين جملة، فمن الصعوبة بمكان أن تعين بدقة. أياً من الزمرتين الاجتماعيتين قد بلغت في ذاك العصر مستوى من تنمية اقتصادية أعلى من الأخرى [52]». لا وجود إذاً للثبات والركود في بلاد الشرق تاريخياً من الناحية الاقتصادية والتقنية، أما بالنسبة لفكرة الاستبداد الشرقي المؤسسة على غياب الملكية الخاصة وأن جميع الأراضي هي بيد الملك أو الدولة هذه الفكرة أيضا أثبت عدم دقتها يكتب إعجاز أحمد موضحاً عدم دقة ذلك بخصوص الهند: « إن الأدلة المتوفرة تشير إلى أن الاقتصاد القروي غالباً ما كان مندمجاً في شبكات أوسع من التبادل والتملك [...] كما تشير إلى أن السدود الصغيرة [...] والبرك المحلية التي كانت تبنى بالعمل الفردي أو العائلي أو التعاوني كانت مهمة بقدر أهمية الشبكات المخططة تخطيطاً مركزيا، كما تشير أيضاً إلى أن ملكية الأرض والتفاوت بين شرائح الفلاحين كانا أكثر شيوعاً مما افترض في السابق [53]». والحالة الثانية هي فكرة المركزية الأوروبية التي هي فكرة هامشية وليست جوهرية، فقد وضحنا أن ماركس كان يعتقد أن للاستعمار دوراً تقدمياً غير واعي وأن جرائمه هي ثمن لهذا التقدم، وذلك بناء على معطيات واقعية جرت في الولايات المتحدة كما تم توضيح ذلك سابقاً.وبكل الأحوال يبقى هدف ماركس (وكذلك أنغلز) هو البحث العلمي (في إطار علم الاقتصاد السياسي) في بنيات اجتماعية واقتصادية مختلفة عن

[51]أحمد، إعجاز، الاستشراق وما بعده، ص 121.

[52]بيروك، بول. هل العالم الثالث في طريق مسدودة ؟ الانطلاقة الاقتصادية من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، ترجمة موريس جلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د.ط، 1977، ص 7.

[53] أحمد، إعجاز، الاستشراق وما بعده، ص 144.

البنيات التي سادت في الغرب الأوروبي، وبالتالي تغلغل بعض تأثيرات المكتوب الاستشراقي في نصوصه عن الشرق لا تجعل نصوصه استشراقية.

الاستنتاجات والتوصيات:

وفي نهاية البحث عن المقولات والأفكار الاستشراقية في نصوص ماركس وأنغلز نستطيع القول أن فكرهما وعلى الرغم من تغلغل الاستشراق في بعض نصوصهما، لا يمكن أن يعتبر داخل النسق الفكري الغربي الاستشراقي وذلك لعدة أسباب يمكن حصرها بثلاثة أسباب:

أولاً، أن الحالات الاستشراقية تم استخراجها من بحر من الإدانات للغرب البرجوازي، والوقوف مع الشعوب الشرقية، يكفي أن نقف عند بعض العبارات حتى نكون على يقين من ابتعاد ماركس وأنغلز عن أية حالة استشراقية مقصودة، ومنها ما يقوله ماركس في المقالة نفسها التي اعتمد عليها إدوارد سعيد "النتائج المقبلة للحكم البريطاني في الهند"، التي يكتب فيها: «إن المراءاة العميقة والهمجية الصميمية للحضارة البورجوازية تتكشف دونما قناع أمام عيوننا، وذلك حين تستدير عن موطنها الأصلي حيث تتخذ أشكال محترمة إلى المستعمرات حيث تتعرى[54]».

ويكتب أنغلز واصفاً همجية الاستعمار الفرنسي للجزائر: «منذ احتل الفرنسيون الجزائر لأول مرة حتى الآن، كانت هذه البلاد البائسة ميداناً لأعمال متواصلة من إراقة الدماء والسلب والعنف. لقد احتلت كل مدينة، كبيرة أم صغيرة، الواحدة تلو الأخرى، لقاء تضحيات هائلة. إن القبائل العربية والبربرية التي تقدر الاستقلال بأغلى الأثمان والتي تشكل كراهية السيطرة الأجنبية مبدأ أعز من الحياة بالنسبة إليها قد سحقت من جراء غزوات رهيبة أحرقت ودمرت خلالها مساكنها وممتلكاتها وأتلفت مزروعاتها، بينما المساكين منها الذين بقوا على قيد الحياة قد سقطوا ضحية القتل الجماعي أو فريسة أهوال القهر والوحشية[55]».

ثمة تساؤل يسقط أمامه أي اتهام بالاستشراق. يكتب ماركس قائلاً: «إن بيت القصيد هو ما إذا كان في مقدور الجنس البشري أن يحقق مصيره دون ثورة أساسية في الحالة الاجتماعية السائدة في آسيا؟ [56]». أي لا يمكن أن تتحرر البشرية دون ثورة في الشرق.

ثانياً، إن الكثير من الألفاظ والتعابير التي استخدمها ماركس وأنغلز (والتي نجدها في المكتوب الاستشراقي) في أثناء شجبهما للمجتمعات الشرقية نجدها نفسها وبالشدة نفسها عندما يتناولان المجتمعات الأوروبية ما قبل الرأسمالية بالتحليل. فأنغلز مثلاً يصف أوروبا المسيحية بالهمجية لأنها دمرت قوى إنتاجية متطورة على المستوى الري والزراعة في إسبانيا العربية، يكتب في هذا الخصوص: «يقضي الغزاة الأكثر همجية على سكان البلد أو يطردونهم فسيسحقون قوى انتاجية لا يعرفون كيف يستخدمونها أو يتركونها نهباً للخراب. وهذا ما فعله المسيحيون في إسبانيا العربية بالقسم الأكبر من أعمال الري التي كانت زراعة العرب وبستنتهم المتطورتان جداً تقومان عليها[57]».

ثالثاً، معظم نصوص ماركس وأنغلز التي تسلل إليها المكتوب الاستشراقي هي إما مقالات وإما رسائل، وبالتالي فهي تفتقد إلى التركيز العلمي والنظري (لاسيما الرسائل)، ويصبح من السهل التعميم، وسرعة الاستنتاج، والاعتماد

---

[54]ماركس، كارل؛ أنغلز، فريديريك، في الاستعمار، ص 90.

[55]المرجع السابق ذاته ،ص 182 .

[56]المرجع السابق ذاته، ص 42.

[57]ماركس ؛أنغلز؛ لينين . في المجتمعات قبل الرأسمالية "نصوص مختارة من ماركس وأنغلز ولينين"، ص 375.

على ما هو شائع من المعلومات. وهذا ينطبق بقوة على ماركس حيث كانت كتابة المقالات مزعجة له لأنها تبعده عن بحوثه ولكنه مضطر إلى ذلك تحت ضغط الحاجة المادية. يكتب إعجاز أحمد بخصوص ذلك: «لقد أرسل ماركس إلى **النيويورك تريبيون** (هذه الصحيفة البائسة كما دعاها بصورة غير مبررة في رسالة إلى أنغلز عام 1858) ما يبلغ مجموعه ثلاثاً وثلاثين قطعة في الشؤون الهندية، وكان ينظر إلى العملية برمتها على أنها بمثابة قطع شديد للدراسات الاقتصادية التي يقوم بها آنئذ، بعد أن ترك وراءه هزائم 1848 – 1849 بكتابته الثامن عشر من برومير بونابرت. والأرجح أن هذا العمل الصحافي ما كان ليتم لو لم يكن في أمس الحاجة إلى المال[58]».وجاك أتالي في كتابه عن سيرة حياة ماركس يصف الفرحة التي عمت بيت ماركس عند وصول أجر مقالته الأولى في **نيويورك تريبون**، يكتب: «في آب 1842، تنشر **نيويورك دايلي تريبيون** المقال الأول لماركس الذي يستلم أول جنيه دخلاً له. وكان ذلك عيداً في البيت[59]».

فماركس كما هو واضح لم يكن همه البحث الجدي بمقدار ما كان همه الحصول على المال ولذلك لم يكن يعيد النظر في هذه النصوص كما هو الحال في نصوصه الفلسفية والاقتصادية، ومن هنا يكون من السهل انزلاق بعض جوانب تفكره في الشرق نحو الفكر المسيطر في عصره أقصد فكر الطبقة البرجوازية المسيطرة في أوروبا التي عملت على تعميم الفكر الاستشراقي الذي يخدم أهدافها الاستعمارية. وهذا الانزلاق لا يجعلنا نضع ماركس داخل النسق الفكري الغربي الاستشراقي أي فكر البرجوازية المسيطرة، لأن لا وجود لمعرفة غير ملوثة بالإيديولوجيا. يكتب مهدي عامل في هذا الخصوص: «إن منطق الفكر المادي في النظر في ما يطلق عليه اسم تاريخ الأفكار، لا يرفض مسبقاً،[...] انزلاق فكر ما، كالفكر المادي [...] حول قضية معينة، إلى مواقع الفكر المثالي النقيض، أو بالعكس، في انزلاق هذا إلى مواقع ذاك، في حركة التناقض والصراع بينهما. ذلك أن التناقض والصراع بين الاثنين إنما هو قائم في الفكر الواحد نفسه الذي يتميز بكونه مادياً، بغلبة الفكر المادي فيه على النزعة المثالية، أو على عناصر مثالية قد تكون فيه، وهو في صراع ضدها[60]».

بناءً على ما سبق نستطيع القول إن في فكر ماركس و أنغلز نزعات استشراقية، وذلك لأن تفكرهما في الشرق لم يستكمل عناصر الفكر الاستشراقي الكامل، أي لم يصل إلى درجة الموقف الاستشراقي الثابت غير المتردد. وهذه النزعات الاستشراقية لم تكن في صلب فكرهما الأممي الخالي من العنصرية والعرقية. رغم ذلك يجب اعلان موت النصوص التي ظهرت فيها أيديولوجيا الاستشراق وفصلها عن النصوص الفلسفية أو العلمية لمؤسسي الماركسية وذلك لأنها تتعارض مع الفهم المادي للتاريخ ولكن يجب أن نؤكد كما توضح من خلال بحثنا هذا ان هذه النصوص التي تحوي أقوالاً تفوح منها رائحة استشراقية لا تنبع من قلب فكر مؤسسي الماركسية وإنما تقع على هامشه. فقد كان من الصعب عليهما التخلص نهائياً من التأثيرات الاستشراقية الواعية أو غير الواعية في مجتمع رأسمالي في طور استعماري لم يشهد ثورة ديمقراطية اشتراكية. ولذلك كان يجب عليهما خوض معركة مفتوحة ضد أيديولوجيا الاستشراق، أي كان ينبغي تنمية وتعميق الروح الأممية عبر فعل مجاهدة ذاتي، لكن ذلك لم يتم بشكل كامل، فانتظرت الماركسية فكر لينين ليخلصها بشكل كامل ونهائي من النزعات الاستشراقية.

---

[58] أحمد، اعجاز، الاستشراق وما بعده، ص 129.

[59] أتالي، جاك. كارل ماركس أو فكر العالم "سيرة حياة "، ترجمة محمد صبح، دار كنعان، دمشق، ط 1، 2008، ص 184.

[60] عامل، مهدي، ماركس في استشراق إدوارد سعيد، ص 124، 125.

المراجع:

1. أتالي، جاك. كارل ماركس أو فكر العالم " *سيرة حياة* "، ترجمة محمد صبح، دار كنعان، دمشق، ط 1، 2008.

2. أحمد، إعجاز؛ سعيد، إدوارد. *الاستشراق وما بعده "إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي* "، ترجمة ثائر ديب، دار ورد، دمشق، ط 1، 2004 .

3. السعيد، رفعت.*الليبرالية المصرية*، دار الأهالي، دمشق، ط1، 2003.

4. العظم، صادق جلال. *ذهنية التحريم*، دار المدى، دمشق، ط2، 2004.

5. العلوي، هادي. *الفكر العربي الإسلامي وضرورة التجديد المنهجي*، دار البدايات، جبلة، سورية، 2008.

6. أنغلز، فريدريك. *ديالكتيك الطبيعة*. ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 1980.

7. بيروك، بول. هل العالم الثالث في طريق مسدود ة؟ الانطلاقة الاقتصادية من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، ترجمة موريس جلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د. ط، 1977.

8. سعيد، إدوارد.*الاستشراق "المعرفة – السلطة – الإنشاء* "، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط 4، 1995.

9. عامل، مهدي. *ماركس في استشراق إدوارد سعيد "هل القلب للشرق والعقل للغرب* ؟"، دار الفارابي، ط 3، 1990.

10. قباني، رنا. *أساطير أوروبا عن الشرق "لفق تسد* "، ترجمة صباح قباني، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1988.

11. لينين. *الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية*، دار التقدم، موسكو، د.ط، د. ت.

12. ماركس، كارل؛أنغلز، فريدريك. *الإيديولوجية الألمانية*، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، د.ط، د.ت.

13. ماركس، كارل. *مخطوطات 1844 الاقتصاد السياسي والفلسفة* ، ترجمة الياس مرقص، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1970.

14. ماركس، كارل. *رأس المال – نقد الاقتصاد السياسي* ، المجلد الأول، ترجمة فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، 1985.

15. ماركس، كارل؛ أنغلز، *فريديريك. في الاستعمار*، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق، دمشق، د.ط، د.ت.

16. ماركس، كارل.الغروندريسة "*أسس نقد الاقتصاد السياسي* "، ترجمة عصام الخفاجي، دار ابن خلدون، بيروت، ط1، 1984.

17. ماركس؛ أنغلز؛ *لينين. في المجتمعات قبل الرأسمالية "نصوص مختارة من ماركس وأنغلز ولينين، مقدمة موريس غودولية"*، ترجمة فؤاد أيوب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د.ط،1994.

18. ماركس؛أنغلز. مختارات، ج 1، دار التقدم، موسكو، د.ط، د.ت.

19. هيغل. محاضرات في فلسفة التاريخ ج 2 "*العالم الشرقي*"، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط3، 2007.

المجلات

مجلة الطريق، العدد الخامس، السنة 56، أيلول– تشرين الأول/سبتمبر – أكتوبر 1997.